ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

الشخصية الحضارية لبربر تونس خلال القرن التاسع عشر الميلادي
جبالية السند نموذجًا

د. عبد القادر سوداني
دكتوراه في التاريخ الحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

عملنا على الإحاطة بتاريخ البربر في تونس، ويسمون كذلك بالجبالية (وخاصةً في منطقة قفصة، غرب البلاد)، هذا التاريخ الذي زخر بزخم وافر من الميزات الحضارية التي كان من المأمول أن تثري الهوية التونسية، غير أن عوامل اجتماعية وسياسية ساهمت في انكفاء جبالية السند على ذاتهم، سنعمل في هذا البحث على تبيان علائق البربر بالحزام البشري لمدينة السند. ترك بربر السند تراثًا ماديًا وآخر لا مادي، سنعمل في هذا البحث على تبيان أهم ملامح هذا التراث، من ذلك اللباس الذي يتميز به البربري عن غيره من السكان والذي يعكس تاريخ هذه الفئة الاجتماعية، كما سنعرّج على ظاهرة الوشم لدى النساء والرجال سواء بسواء، هذه الرموز التي كانت أحد تجليات بقايا الثقافة البربرية. ارتأينا العودة إلى الفترة الحديثة وخاصةً خلال القرن التاسع عشر الميلادي الذي عرف زخمًا من التحولات لدى البربر في منطقة السند سواء في التكوينية الداخلية للجبالية أو في علاقاتهم بالسلطة والمجاميع المجاورة.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢١ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ٠٧ أبريل ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
البربر، السند، السلطة، الفن، العادات، المعتقدات

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054806

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد القادر سوداني. "الشخصية الحضارية لبربر تونس خلال القرن التاسع عشر الميلادي: جبالية السند نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص١٥٣ – ١٥٩.

مُقَدِّمَةٌ

في سياق نظام العولمة كان التمشي هو تفتيت الهويات الثقافية المحلية ونمذجة الفكر الإنساني وسلوك المجتمعات، غير أن الاهتمام بالتاريخ المحلي بات مبدئًا لا مندوحة عنه من أجل رفع بعض الآراء الالتباسية، خاصةً تلك الآراء القائلة بعتاقة المجتمع التونسي وانقساميته، وإبراز الهوية المحلية باعتبارها هوية متحركة وخلاّقة. إن المتأمل في بعض الدراسات التي تناولت تاريخ البربر يرى أنهم أسقطوا من الفعل التاريخي في جلّ العصور حتى هيئ لأغلب الباحثين أنهم عابرون دون أثر ثقافي، ومن تجليات ارتباط البربر بالعشوائية في الفعل التاريخي هو قبولهم بكل الموجات الحضارية التي وفدت للبلاد التونسية، ومن دلالات ذلك تركز غالبيتهم في تونس المنسية، لا سيما في شعف الجبال، كما انتأوا الأبعاد القصية في الصحاري والهوامش المجالية. مع هذا التذويب حافظ البربر على ملامح من الشخصية الحضارية مثل اللغة واللباس ونمط العيش، هذه العوامل ساهمت في تشكيل ذهنية جمعية خاصة بجبالية السند سنعمل في هذا البحث على التعريج على أهم خاصياتها.

من الخاصيات الحضارية ذات المسحة الفنية لجبالية السند يمكن ذكر الوشم الذي يجمع بين تاريخ الفكر وتاريخ الجسد، فمن خلال هذه التعبيرات أصبح الجسد بمثابة متن وأداة تحكي تاريخ المجموعات، فبات الجسد فضاء يكشف الأبعاد السوسيو-سياسية للبلاد التونسية، فانفلت الجسد من

البعد الفيزيائي إلى الجسد الحضاري الذي يجسّد جانبا من تاريخ السكان، هذا التاريخ الذي زخر بزخم وافر من العلامات الفنية. فالفن هو من آليات المقاومة الحضارية والمثاقفة الدفاعية التي إنتهجها البربر، فالمجال البربري وقع احتلاله من قبل الفنيقيين والرومان والفرنسيين، هذا المد الاستعماري المتنوع أضعف الهويات الأولية للمجموعات المنهزمة، وما اختلاف الأنوماستيكية البربرية (ليبيون، بربر، أمازيغ،...) إلا كناية عن عدم توازن التفاعل مع الآخر وقوة الحضور الأجنبي في المجالات البربرية ، فبقي العنصر البربري من الأقليات الأقوامية[1] التي عجزت عن فرض نمطها الحضاري وبقي مفعولاً به تاريخيًا. غير أن مزيد البحث في تاريخ هذه المجموعات يكشف عن مخزون تاريخي للبربر بقي طي التغييب والتجاهل من قبل النخبة واللفيف الحاكم.

ما يمكن تسجيله خلال القرن التاسع عشر الميلادي في تونس هي إستراتيجية تمتين القيود من قبل المخزن على المجموعات الطرفية، لأن البايليك كان يدرك أن الحدود السياسية قد جزّأت البنى الإثنية للبربر والذين قد يتطلعون إلى لم شظاياهم في المغارب. لذلك بالغ المخزن في استهداف الجبالية في مختلف أرجاء الإيالة بالحملات الزجرية وبالاعتصار الضريبي مرّ بعدها الجبالية إلى طور الإمتثالية السياسية والصمت الحضاري، هذا الصمت الذي دفعنا إلى محاولة إبراز بعض من السمات الحضارية لجبالية السند.

أولاً: الجبل والمخزن

(ديالكتيك الرفض والفرض)

١/١- الجبالية: جزيرة قروية في محيط بدوي

تقع قرية السند شرق مدينة قفصة في سفح جبال عرباطة، تحيط بها من الشرق والشمال مجموعات أولاد عزيز، استوطنت أغلب المجموعات الكهوف في الجبل قبل أن يجبرها الاستعمار الفرنسي على النزول من الجبل وتعمير السهوب المحاذية للجبل، ويُعَدّ جبالية السند أبرز المجموعات البربرية إلى جانب بربر ماجورة وكذلك العيايشة، تميّز الجبالية كغيرهم من البربر بالطابع الفني الذي حدد جانب من الشخصية الحضارية لبربر السند.

ارتبط الجبل بالرفض ومقاومة عسف المخزن والجور الكولينيالي،[2] ففي العهد التركي تعرض البربر إلى التنكيل من قبل الحملات الزجرية، فتم إخلاء أغلب الجبال (الحامة، عمدون، وسلات ، ..) من ساكنيها، فدانت الجبالية بطاعة هذا الحي من المجتمع (الأتراك) رغم ذلك لبث تنفذ المركز في الجبال القصيّة مبعثرا ومتعثرا، فبقي الجبل منطقة رفض للحكم المركزي لذلك وقع استهدافه في مرات عديدة من العهد المرادي حتى إخلاء وسلات في العهد الحسيني ليمر بعهدها أغلب الجبالية (باستثناء جبالية الشمال الغربي) إلى طور الخضوع والاستكانة.

إلى جانب ذلك فقد حافظ جبالية السند على طابعهم الولائي للمركز لذلك لم نشهد أية صدامات بين الجبالية وبين المخزن الحسيني، فقد كان البايليك يعوّل على دعم الجبالية لمراقبة عروش الهمامة العاصية. في المقابل كان الجبالية يدركون أنهم دون سند قبلي فكانوا بحاجة إلى الدعم المركزي. مع هذه المخزنة المركّبة لبث الجبل منطقة ظلال، وبقي البربر من الجماعات الإضافية (قبيلة روادف) التي لم تتضح طبيعة علاقاتها بالبايليك وبالمجاميع المتاخمة، فكان على جبالية السند التعاطي مع الخاصيات السوسيو-سياسية لمنطقة الهمامة. نجح جبالية السند في التكيف مع مختلف التقلبات السياسية والاجتماعية، كما استفادوا من الصراعات القبلية المحيطة بهم، من ذلك الصراع الداخلي لعرش أولاد عزيز، بين أولاد علي بن زايد (أولاد عبدالكريم، الردادية، البدور) وبين أولاد محمد بن عزيز (أولاد بلهادي، أولاد محمد، أولاد مبارك)، ثم شقّت الصراعات الداخلية عرش أولاد علي بن زايد مما جعل الجبالية يعددون من شبكة تحالفاتهم،[3] ويبعدون الجبل عن مخاطر الصفوفية القبلية.

في تخوم الجبل يرابط أولاد عزيز وخاصة الردادية وأولاد عبد الكريم الذين كانوا في تماس مباشر مع الجبالية. ولئن مكّنت النزاعات بين الجانبين (أولاد عبدالكريم والردادية) بوجود هامش من المناورة بالنسبة للجبالية فقد أدت الغربة الإثنية إلى الإنغلاق على الذات نتيجة وجود حقل قوى داخلي جاذب للأفراد،[4] وهو الجبل الذي عصمهم من الصراعات الدائرة حولهم. هذا الحياد الذي جعل أولاد عبد الكريم يستأمنونهم على حبوبهم بعد نهبهم لمحلة البايليك واستهزائهم بالباي "البي من بياه"، وتوقعهم ردة فعل من قبل المخزن. فاستفاد الجبالية في مرحلة أولى من طابع الإغارة لدى أولاد عبد الكريم من خلال تقديم العون لهم لذلك لم نشهد عمليات غزوة أو "خنبة " بين الجانبين عكس استهداف أولاد عبدالكريم للعيايشة[5] ولأولاد يعقوب.[6] أدرك الجبالية أن السلطة المركزية كانت تشجّع عمليات الإغارة بين العروش لأنها كانت تعمد إلى تسليط الخطايا

على الغوّارة وعدم إرجاع المنهوب إلى أصحابه، لذلك ربطوا عقد "صحبة وشركة" مع أولاد عبدالكريم لتؤمن من جهة إغاراتهم ولتستفيد من جهة أخرى من النشاط الرعوي لديهم. تواصلت لدى جبالية السند تلك الذهنية الليبرالية القادرة على التكيّف مع كل المتغيّرات، من طاعة البلاط الحسيني إلى مهادنة القوات الفرنسية بعد ١٨٨١، فالتعامل مع الاستعمار ساعد على مزيد التحضّر والاستفادة التجارية والاقتصادية مثل تعاملهم مع المعمّر "تريشي"، دونك في ذلك أن البرج وقع استغلاله من قبل الاستعمار لإحكام سيطرته على الأدراش والفحوص المجاورة.

داخل الجبل يطالعنا القصر في الأعلى، والغالب أنه بيت الميعاد والرجالة الكبار، ومنه يتم تصريف حكم الجبل، في هذا السياق يمكن أن ننوّه أن التنظيم السياسي تميّز بهيمنة سفوقراطية القبيلة البربرية وسيطرة حكم البيوتات التي تحرص على احترام العرف والانسجام العشائري، هذا التنظيم السياسي سمح بالمحافظة على أصالة الهوية البربرية لدى جبالية السند. وقع توزيع الدشر حسب الجد، وهذا ما يؤكده كثرة قباب الزوايا في السفح، كما يشي بحالة التشظي الذي عرفته المجموعات الجبلية، دونك في ذلك أن جبالية السند قبلوا إيواء بعض الطرابلسية والجريدية داخل مجالهم مما يعني انفتاح البنية البربرية على غيرها من التكوينات الاجتماعية. فحسب المراقب المدني بقفصة سنة ١٩٠٠ وقع تقسيم الجبالية إلى مشيختين:

- مشيخة بلدة السند: الناصرية (أولاد سيدي راشد، السكارفة، أولاد جراد، أولاد جابله) والسندية (أولاد سليمان، أولاد بوساكن، الحمايزية، الحراثية) والمشاشة (أولاد زاوية المش، القمارصة، الهذالة).
- مشيخة أولاد بوسعد: أولاد بوسعد (التمامة، الغيول، أولاد كشاش، أولاد علي بن سالم، أولاد خنداق، البياضة، أولاد منصور، التوابيس، أولاد عبد الرحمان، أولاد القواري).

إلى جانب تمسك بربر السند بالجبل تميزوا كذلك بالقدرة على تأثيث المجال من خلال التحكم في التساقطات والعيون المائية، خاصة في مواسم الجفاف، فشاع حفر المواجل في نهايات المجاري وعلى الحواشي،[٧] كما كانوا يزرعون التين والزيتون في مصاطب الجبال. إن من أسباب تواصل اللحمة الداخلية للبربر قدرتهم على حماية الهوية والثقافة الأصيلة واستجابتهم للعرف المنظّم لتعايشهم. فقد سيطر العرف في المناطق التي تناءت عن الحواضر ولم يكن يعتدّ برأي سدنة الفقه أمام قوة العرف، فامتاز الجبالية بشدة حميتهم في شأن الشرف،[٨] وهو ما يعني أن العرف كان الإطار المنظّم لعادات وتقاليد الجبالية.

٢/١-العادات والتقاليد لدى جبالية السند

تميزت التركيبة السكانية للمجتمع التونسي بالتنوع العرقي والاثني، إذ استوطن بتونس كل من الرومان والعرب والأندلسيون والترك واليهود والمماليك والغرابة وغيرهم من الأجناس والاثنيات. وكان الجبالية هم العنصر البشري الأصيل لهذا القطر،[٩] لذلك نرى أن قيمة التناصر كانت من الهويات التي تجمع مختلف المجاميع البربرية، من ذلك أن جبالية وسلات وبعد تعرض جبلهم للإخلاء اختاروا الاستقرار لدى المجموعات الجبلية في الغرب،[١٠] مما يعني تماثل العادات والتقاليد لدى مختلف المجاميع البربرية. تعوّد البربر على التوجّس من البدو لذلك كان المسلك الذي يستعمل لصعود الجبل عادة ما يكون شديد الضيق وبه التواءات حتى تسهل مراقبته لذلك سمي ب " الخنقة "، وعند ظهور خطر الخنّابة أو الجيّاشة يتم قرع الطبول أو إشعال النيران من أعلى قمة الجبل كعلامة تحذير. وغني عن البيان أن الطبل يحتلّ أهمية كبرى في عادات البربر،[١١] فهو وسيلة تواصل وإخبار ويؤثث كل مناسبات البربر.

من العادات الاستهلاكية للبربر هو إقبالهم على أكل الكسكسي والزميطة الممزوجة بالتمر والعسل، وقد تميّز البربر بادخار مأكولاتهم في بيت المونة والتي شيّدت بطريقة هندسية تلائم الحرّ والقرّ، فداخل كل كهف في جبل السند نجد مكانًا مرتفعًا وبمنأى عن الشمس والرطوبة يستعمل عادة لتخزين مؤونة العائلة. وفي أعلى الجبل خصص كهف بأكمله لخزن الحبوب والتمر و" الكباب" و" الشريحة".[١٢] نجح البربر في استثمار كل إمكانات الجبل من الغراسات في السفح والزراعات في "البحيرة والقرعة"، كما استعمل حجارة " الصوان" في عصر الزيت، وهي نوع من الحجارة الذي لا يمتص الزيت، زيادة على أن الجبل يحتوي على بعض الأشجار التي تستعمل كدواء مثل الإكليل والزعتر، وبذلك فقد وفّر الجبل كل احتياجات البربري، وكانت هذه الكفاية نتيجة لتاريخ طويل من التعامل مع المحيط وتراث من الثقافة المعيشية.

علاوة على التمكن من عالم التطبب فقد تميّز تاريخ الجبالية بشدة ارتباطهم بعالم الحدثان والميتاتاريخ، ففي معبد مدينة عين الأصنام يجتمع الرجال والنساء في وقت معلوم من السنة ويقدم الأطفال الصغار كقرابين للآلهة،[١٣] كما أن تقديس البربر للمغارات والكهوف وقمم الجبال لأنها تتيح لهم الاتصال بالآلهة الأرضية. أما قمم الجبال فتتيح لهم الاتصال بآلهة السماء،[١٤] لذلك يؤمن جبالية السند أن مطر أوسّو مطر مبارك وأن على الشخص أن يبتّل به لذلك يخرج الجبالية عند هطول المطر إلى قمة الجبل راجين أن تتطهرهم من الأرواح الشريرة. تواصلت هذه العقيدة بشكل آخر إذ بنيت الزوايا ودار الجماعة في قمم الجبال مما يشي بأن العادات البربرية بقيت صامدة في الوعي الجمعي والفردي.

ثانيًا: البربر بين الهوية المحلية والهوية الجامعة

١/٢-السمات الحضارية لجبالية السند

أثبتت بعض الدراسات الجينية الأخيرة أن المجتمع التونسي هو مجتمع متعدد الأصول مع بعض الجزر المتشابهة[١٥] غير أن عمليات المثاقفة والانصهار الحضاري ساهم في تقارب مختلف الاثنيات في تونس وتبديد الفروقات الجلّية بينهم. تؤكد أغلب الدراسات أن البربر وجدوا منذ القدم، وهم مجموعة إثنية مستقلة بذاتهم،[١٦] وقد ارتبط وجودهم في تونس بالحضارة القبصية، لذلك تميز البربر بخاصيات فيزيونومية (الامتلاء والبياض) والتي تختلف مثلا عن ملامح المرفولوجيا العربية (السمرة والنحافة) التي يتميز بها قطاع واسع من السكان، مما يعني أنهم من العنصر الأصيل للمجتمع التونسي. ومن أبرز المميزات الحضارية للساكنة البربرية هي اللغة الأمازيغية "الشلحة"، حتى أن تقلص هذه اللغة لم يمنع تواصلها حتى وقتنا الراهن وتمكنت من الإفلات من الإبادة الحضارية التي تعرض لها البربر، خاصةً زمن المد العثماني إذ تعرّض البربر إلى شتى أصناف التنكيل المادي والرمزي. ما من بد أن بعض مفردات المنطوق الشعبي المحلي بقيت تحتفظ ببعض مفردات اللغة البربرية من ذلك: القطوس: القط، الزياط: الصياح، صريدي: برد، غنجاية: ملعقة، كشطة: عمامة، للاّ: سيدة، توّا: الآن.....، كما أن الاستقرار في الكهوف والمغاور الجبلية سمح للتراث المحلي (المادي واللامادي) بالانتقال من جيل لآخر بكل يسر ومنع ذوبان الهوية والعادات البربرية في موجة الحضارات الوافدة.

لجأ البربر إلى سياسة التوقي والترقي (من الرقية) في تعاملهم مع مختلف الأعراق الحاكمة في تونس، إذ أجبروا تحت واقع الضعف على إتقان إستراتيجية التواري والمداهنة، لذلك نرى أنهم أقبلوا على الرومنة زمن الوجود الروماني ثم اعتنقوا الإسلام دينا في حقبة لاحقة، ثم اضطروا إلى عقد الصحبة مع الأعراب المحيطين بجبل السند في فترة الأزمات الطويلة La Phase des Grandes Crises والتي سادت فيها الفوضى والإغارة. وعندما وفد الأتراك نراهم قد مالوا إلى التهادن مع المخزن، فلم نشهد أية حملة زجرية تجاه جبالية السند، عكس بقية البربر الذين تعرضوا للإخلاء والتنكيل، مما يعني استقامة طاعتهم للمركز. هذه التحولات طبعت السيكولوجيا الفردية والجمعية بطابع ليبيرالي قادر على التفاعل مع الضغوط الخارجية، عكس أعراب الهمامة المحيطين بهم والذين اتسموا بالغلظة والشدة. هذه الشخصية الليبرالية لبربر السند كانت كذلك عصارة لفكر منفتح وفني.

تميزت المرأة الجبالية بالاهتمام بجمالها، إذ تجمعها علاقة مودّة مع الشباحة (المرآة) وتميّزت كذلك بمعرفتها بطرق استخراج الخضاب والمساحيق من التربة والأشجار الجبلية، فتستعمل الجبس والرماد لإزالة الشعر، كما تستعمل الكحل والحرقوس والسواك والطين والجدرة (خليط من الخزامى والقرنفل) لزيادة جمال الشعر ونظارة الوجه. وقبل استعمال الحرقوس يتم مزجه بالماء بواسطة المرود ثم يقع تمريره على الوجه وتستخدم قذاة الحلفاء للقيام ببعض الرسوم فوق الرموش. والحرقوس هو وقف على النساء المتزوجات، وخاصة خلال الفترة الواقعة بين الزواج والولادة الأولى، وتتكفّل الحنانة بتجميل النساء وتكون عادة من عجائز العامة، وإلى جانب الزينة فقد تميزّ جبالية السند بتراث من المنطوق الذي كشف عن تواصل بقايا من الحضارة البربرية. كما أدت خصوصية المكان الجبلي (ضيق الفضاء) إلى غياب بعض الأنشطة الترفيهية المتوفرة في الفحوص مثل الحبارية، كرة الزلاط والفروسية مما أوجد بعض الأنواع الأخرى من التسلية، فشاع في السند الجبل الألعاب العقلية مثل الأحاجي والحروز.

٢/٢- الفن الصامت لدى جبالية السند خلال القرن التاسع عشر

رغم أن الكثير من العلامات السيميائية للمجموعات الحضارية لم يقع دراستها دراسة مستفيضة، تنسجم مع أهمية الفن في النبش في الذاكرة الجماعية[١٧] نتيجة الإبادة الحضارية التي تعرّض لها بربر شمال إفريقيا، إلا أن دراسة المجاميع السكانية وفق رؤية أنتروبولوجية بات أمرا أكيدا. فالوشم يعبّر عن التقاء التاريخ بالأنتروبولوجيا والإثنوغرافيا، والوشم يسمح بالحفر في ذاكرة المجاميع السكانية فهو من الفنون العابرة للزمن. وقد يكون البربر المستقرون أوّل من تعاطى الوشم، إذ كانوا لا يزوّجون بناتهم إلا وهنّ موشمات، وينجز الوشم بعد سلسلة من الغرزات والحزّات الجلدية التي تمكن من نشر قليل من السخام (رماد القدر) بين الأدمة والبشرة وقطعة من الصوف، وتنطلق العملية بوخز الجلد ثم وضع السخام على الخدش، ثم يدعك الجرح بزيت الزيتون وأوراق العنب.

سادت لدى نساء البربر عادة وخز جلود أبنائهن وبناتهن منذ طفولتهم، إنه وشم الحماية المسمى عيّاشة، ومن المهم الإشارة هنا إلى ربط سيلان الدم بالبركة وزوال الشرّ "سال الدم، فات الهم"،[١٨] فالوشم كان من الطقوس السحرية ونوعا من التمائم الدائمة ودواء لعلاج ألم كان بالإمكان طرده بطريقة مغايرة وهو زخرف جمالي للجسد. كما يكتسي الوشم طابعًا طبيًا إذ من شأنه التخفيف من الألم وطرد الأرواح الشريرة وخاصة تلك التي تحوم حول المولود الصغير حسب المعتقد الشعبي. شاع لدى جبالية السند رسم النخيل (الجريدة) والسمك (الحوتة) والصليب على الجسم (ذبّانة)، وتخيّر المرأة الوشم في الأماكن المكشوفة من الجسد وخاصةً في اليد والكاحل والوجه، وغني عن البيان أن المرأة الجبالية تنحو إلى الرسم التناظري في الوجه من خلال الوشم بخط عمودي وآخر أفقي تبدأ من الجبهة إلى الذقن مرورا بالأنف، ثم نجد خطًا آخر من وجنة الوجه إلى ما تحت العينين.

أما الرجل فيميل لوشم الحيوانات (خاصةً الثعبان والأسد) والنساء ورسومات ذات أثر طوطمي وأخرى تميل إلى التعبير عن السيكولوجيا الفردية مثل وشم السيوف التي تعبّر عن تحبيذ منهج القوة والسطوة، ويختار الرجل الوشم في الساعد والصدر والمعصم. في المقابل تخيّر المرأة التورية في الوشم أي تخليد بعض الأحداث أو الشخصيات في حياة المرأة لكن باتباع الرموز مثل النقطة، ولا غرو أن المجتمع الباتريمونيالي (الذكوري) في منطقة السند يدفع النساء إلى إخفاء رغباتها وعدم البوح بها حتى في الوشم.

كما أن النسيج هو من الفنون البربرية الشائعة وهو أقدم أنواع الفن لدى البربر، إذ وجد منذ ما قبل التاريخ في الحوض المتوسطي.[١٩] فالنسيج انتشر لدى بعض المجموعات البربرية (البرانس) التي تعتمد على تربية الماشية من أغنام وإبل، هذه الماشية التي توفّر المادة الأساسية لصناعة البخنوق والبرنس المخروطي الشكل والفليج اللازم لتشييد الخيام زمن الترحال. كما تكشف هذه الأنشطة الحرفية عن دور المرأة في المجال الفني، فالرسوم النسيجية حملت الرؤية الفنية للمرأة، هذه المرأة التي احتفلت بالجمال "جيب بنتك زينة أما الحذاقة تتعلمها من بنات النسا" أي أن المهم أن تكون ابنتك جميلة أما تدبير شؤون المنزل فستتعلمها من عند الأخريات. فنفس الأشكال من الرسوم نجدها في النسيج وكذلك في الوشم،[٢٠] مما يعني أن المرأة البربرية كانت تتمتع بشيء من الاطلاع والمعرفة بالجانب الإستيتيقي. ولا مندوحة أن سطوة المرأة الجبالية عكسها المأثور الشعبي مثل: النسا غلاّبات كل غالب،[٢١] وتحاول كل النساء أن تبرز في مجال النسيج وتحاول جلب الأنظار لهن ولمنتوجهن.

كما كان اللباس من الأمارات البيّنة للفن البربري فالمرأة الجبالية تلبس النقرة (الفضّة) أما الرجل فيلبس الخنجر والعمامة والبرنس والوزرة والتخليلة، ونرى أن اللون البني قد هيمن على غيره من الألوان في منطقة السند الجبل، وتتكفل المرأة الجبلية بالنسج لبيتها ولبيت "صاحب" زوجها من العربان، وكان كل عرش من الجبالية يحاول التفوّق عن غيره وأن يتميز بنوعية خاصة من المنسوج. ويمر النسيج بعدة مراحل تبدأ عندما يأتي العربي بـ "جزة الصوف" في "علاقة الشركة" لتنهمك المرأة الجبالية في تنظيف الصوف وغزله ودباغته ثم نسجه. إلى جانب النسيج والحياكة التي كشفت عن تراث بربري بقي طي الصمت والتجاهل، فقد احتفل جبالية السند بالموت، وكانت كل عائلة تحاول الإعلاء من شأن فقيدها من خلال الاحتفاء بقبره لذلك تنوّعت النقوش في الأضرحة وتعددت اللقى الأثرية الخاصة بالمقابر، فالبربر قد صمدوا لتقلبات التاريخ وغزو الغزاة ومحاولات الاحتواء والتذويب والطمس، فكأنهم المجرى الثابت الذي

ظّل موصولاً بعد انقضاء الحضارات والدول والإمبراطوريات التي تعاقبت على منطقة شمال إفريقيا.[٢٢]

إن أهمية دراسة البنى الفوقية والهويات الأولية للبربر من شأنها أن تساهم في إدماجهم في الهوية الوطنية وتحسم مع جدلية الانتماء/ الإقصاء لكيان واحد جامع، فارتخاء الروابط بين التكوينيات الاجتماعية قد يكون عامل تفكك لأن الملاحظ أن البلدان التي لم تستطع التعامل مع الأقليات بقيت مكانًا للتوتر الدائم،[٢٣] زد على ذلك أن بعض الإيديولوجيات ساهمت – بوعي أو بدونه- في نزع الغطاء الديني الجامع لمختلف الأعراق الاجتماعية، فكان الركون إلى الهوية العرقية ثم الهوية المناطقية والتي قد تهدد البناء السياسي والاجتماعي لتونس.

خَاتِمَةٌ

ما يمكن التنويه إليه في الختام أن هذا البحث المجهري (Le Micro-Histoire) هو محاولة لفتح أفق جديد في البحث حول تاريخ البربر في تونس بصفة عامة وجبالية السند بصفة خاصة، فأغلب الدراسات التي تناولت التاريخ البربري بقيت تراوح في إطار المبحث التراثي الجامد والراكد، ولم يتم تشكيل تاريخ شمولي (Le Macro-Histoire) لجبالية السند يشمل السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية المحيطة والمتداخلة مع التاريخ المحلي.

اغتنمت المدرسة الكولينيالية الفراغ الرهيب حول الهوية البربرية لمحاولة تفكيك وتركيب التاريخ الثقافي والاجتماعي التونسي، لذلك ما فتئ المستشرقون والانقساميون يتلاعبون بالذاكرة البربرية، فكرّست جهودها لتأكيد الخصوصيات المحلية مركّزة اهتمامها على اللهجات والمعتقدات الشعبية. ولم يشذّ جبالية السند عن هذا السياق الانقسامي الذي يحضّ على إبراز الفوارق في التكوينة السكانية المحلية، ثم واصلت "الدولة الوطنية" نفس الإستراتيجيات السياسية من خلال منع تشكّل ذهنية سياسية واجتماعية جامعة لذلك نشرت شبكة من التحالفات مع الفئات الاجتماعية الهشّة (العروش الرقاق) والأقليات العرقية ومنهم جبالية السند من أجل ضرب عشائر الهمامة هذه القبيلة العاصية لحكم المخزن والمستعمر، وقد نجحت هذه الاستراتيجية السياسية في منع تشكّل وعي بالمطالبة بكيانية سياسية مستقلة وفق العرق والاثنيات.

عكست الكثير من الكتابات التاريخية هذا الصراع والتباين بين المركز والأطراف، لذلك تمزقت الكتابات التاريخية في تونس بين التاريخ الشمولي السلطاني، وهو التاريخ الرسمي السكولاستيكي، الذي ينزع لإعلاء فضل المركزي على المحلي، وبين التاريخ المحلي الذي يريد إبراز أهمية الجزئي في البناء الكلي.

الهَوامِشُ

(١) غليون (برهان)، **نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٠، ص١٦.

(٢) جبال برقو والسرج – وهي من الجبال البربرية-كان أبرز مكان للفلاقة، فتركز في جبل برقو زهاء ٤٠٠ من المجاهدين. انظر: Frémont (Armand), Dans la région de djebel serdj (dorsale tunisienne) ; Notes de Géographie humaine, in *Méditerranée* , 10 eme année, 1969, p 19.

(٣) تفيد الرواية الشفوية أن أصل كلمة "السند" تعود إلى أن الجبالية كانوا يسندون جميع العروش المتنازعة حولهم حتى لا يحسبوا على طرف دون آخر وهي الإستراتيجية التي سمحت لهم بالنأي بأنفسهم من تبعات التصاف القبلي.

(٤) يُطلق التماسك الاجتماعي على حقل القوى الجاذب للأفراد، المؤثر في تفاعلهم ويقاس بتقنية المقايسة الاجتماعية. خليل (أحمد خليل)، **معجم مفاهيم علم الاجتماع**، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٦، ص ٣٤.

(٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، الدفاتر الجبائية، دفتر عدد (٢٣٥)، صفحة ٩٦، تاريخ ١٧٨٨: خطية على أولاد عبد الكريم والبدور وأولاد يحيى بـ ٧٠ من الإبل وعلى أولاد عبد الكريم ٢٥٠٠ نعجة لغزوهم العيايشة.

(٦) المصدر نفسه، دج، دفتر عدد (٤٥)، ص١٢٧، ت ١٧٥٠: خطية على أولاد عبد الكريم بـ ٥٠ ناقة المنهوبة من أولاد يعقوب.

(7) Baduel (P& A), Le pouvoir de l'eau dans le sud Tunisien, revue de l'occident Musulman et de la méditerranée , N 30, 1980, p 107.

(٨) أغار جبالية خمير على جندوبة وفعلوا الفاحشة بأحدهم شماتة، لأن أهل جندوبة أسروا سابقًا نساء لأهل خمير. برهومي (صلاح الدين)، محاولة في عرف الجبل في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر"، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد٧١، ٧٢ السنة ٢٠، ماي ١٩٩٣، ص١٦. راجع أيضًا: أ و ت، نفس المصدر، س ت، ص ٢١١، م ٢٢٥، و ١١: مراسلة وكيل الدولة التونسية بعنابة.

(٩) الخامس (محمد بيرم)، **القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور و رياض المرزوقي، بيت الحكمة قرطاج، الطبعة الأولى تونس ١٩٨٩، ص ٥٣.

(10) Déspois (Jean), Le Djebel ousselat , Les ousseltya et les kooubs ,*cahiers de Tunisie* ,N 28, 1958, p. 420 .

(١١) تخبرنا الرواية الشفوية أن طبال الجبل يقع إختياره من شجعان القرية ويكون ذا تمكن في التعامل مع الطبل، فيختلف الضرب حسب كل حالة فالضرب على الطلب في حالات الخطر يختلف مثلاً عن تلك التي تدعو الجماعة إلى الإلتحاق بدار الرجالة الكبار، وكل من في الجبل يفهم المغزى من كل أنواع الضرب على الطبل.

(١٢) الكبّاب من الأكلات الشائعة عند البربر وهي خلط التين بزيت الزيتون ثم تجفيفه تحت أشعة الشمس ثم القيام بخزنه. أما الشريحة فهي قشور التين الشوكي ويتم تخزينها وحفظها بنفس الطريقة.

(١٣) الزياتي (ابن الوزان)، **وصف إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمان حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر دت، ج١، ص ٣٦٤.

(١٤) كامبس (غابريال)، **البربر: ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار إفريقيا للشرق، الدار البيضاء ٢٠١٠، ص٢٤٢.

(15) Gherib (GR & (Nicoli (RM & (Ranque (J & Battaglini (PF), Recherche sur les populations Tunisiennes : étude séro-anthropologiques, in *bulletin et mémoire de la société d'anthropologie de Paris* ,11 eme série Tome 7, fascicule 2, 1965, pp 165-170.

(16) Camps (Gabriel ,(Encyclopédie berbère. ,édition Edisud, Paris 1984, P.7. Febvre (Lucien), Combat pour l'histoire , édition Armand Colin, Paris 1992, p 313.

(١٧) يجب خوض معركة قوية من أجل كتابة تاريخ للفن يكون العنوان الأبرز لدراسة التاريخ.

(١٨) لويس (أندريه)، **بدو الأمس بدو اليوم في الجنوب التونسي**، ترجمة فتحي ليسير، مراجعة أحمد الجوّة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٥، ص٢٢٣.

(19) Vandenbrock (P), L'art des femmes berbères, Edition Flamarion, P.80.

(20) Thabet (Rahma), Survivance de l'art berbère ; le tatouage : des origines jusqu'à nos jours, p-u-sfax, flshs, Unité de recherche : acculturation de la Tunisie méditerranée et centre cercina pour les recherches sur les iles méditerranéennes, Préface Abdelhamid Fehri, Sfax 2014, p. 83.

(٢١) المطوي (محمد العروسي)، الحناشي (محمد الخموسي)، **الأمثال الشعبية التونسية والحياة الاجتماعية**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت ٢٠٠٤، ص٣١.

(٢٢) كامبس (غابريال)، **البربر**..... ، المرجع نفسه، ص١٠.

(٢٣) عند قياس عدد الحروب الأهلية ذات الطابع الإثني في العالم يبيّن أن الفترة بين عامي ١٩٤٦ و٢٠١١ شهدنا ٥٧ حربا أهلية إثنية. عبد الحي (وليد)، **نموذج قياس النزعة الإنفصالية للأقليات في الوطن العربي**، من مؤلف جماعي، **جدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٤، ص ١١٤.